المرجعية الفكرية والكلامية لمفهوم النظم في التراث العربي

Intellectual and verbal reference for the concept of systems in the Arab heritage

ملياني إكرام
جامعة وهران 1 (الجزائر)
ikram.ikoula@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/09/12 تاريخ القبول: 2019/09/27 تاريخ النشر: 2020/01/05

ملخص البحث

تسعى هذه الدراسة إلى مراجعة مفهوم النظم لدى عبد القاهر الجرجاني، من خلال العودة إلى الأصول الفكرية لهذه النظرية وجذورها النحوية من خلال جهود سيبويه، ومن ثم اسهامات المتكلمين والبلاغيين أمثال أبي عبيدة والجاحظ في بلورتها، مبرزين نضج فكرة نظم الكلام وأبعادها البلاغية واللغوية والنحوية مع عبد القاهر الجرجاني في كتاب "دلائل الإعجاز".

كلمات مفتاحية: المفهوم، المصطلح، النظم، الإدراك، التفسير، التحليل. التراث. التطبيق. النحو.

ABSTRACT:

The present research paper takes as its primary function to review the concept of systems as highlighted by the influential Abdul Qahir Al Jurjani . In pursuit of this aim, a thoughtful examination of this theory , its origins and its grammatical roots will be undertaken in light of Sibawayh's efforts and the contribution of speakers and rhetorists like Abu Obeida and el Jahidh , crystallizing the evolution of the idea of speech systems by bringing to the surface its rhetorical , linguistic and grammatical dimensions in Abdul Qahir Al Jurjani's book " Signs of Miracle". Furthermore, Abdul Qahir Al Jurjani's theory
was fundamentally based on a cognitive and intellectual integration, covering up various topics with regard to grammar, structure, meaning and rhetoric. More than this, he has even elucidated the channel of communication that connects the speaker with the listener..

keywords; Concept, term, systems, perception, interpretation, analysis. Heritage. Application. Grammar.

مقدمة:

أقامت اللغة العربية حميميتها مع ذاتها منذ اللحظة الأولى التي صارت فيها لسانا مبينا للناطقين بها، لم تصنع ذلك بمحض الصدفة، بل لأنها تمتلك من الخصائص المميزة لها عن سائر اللغات الأخرى، ما جعلها أوفر حظ في استقطاب المهتمين بها والمُولعين بحفظ أشكالها ورسومها، وتذوق أسرارها التي لا تتناهى عند حدّ من الإفصاح والبيان، وقد صارت لغة القرآن الكريم بعد نزول الوحي بها، فإنها لا شك قد حققت من التّميّز ما جعلها لغة فوق كل اللغات، وهذا ما أدى إلى الاهتمام بمظاهر الإعجاز التي شغلت المفكرين منذ اللحظة الأولى التي بدأ فيها الدرس اللغوي يسلك طريقة للتأسيس وفق القواعد الضابطة والمعايير الدقيقة.

إنماز عصر عبد القاهر الجرجاني(ت471ه) بالسليقة، حيث استطاعت اللغة العربية أن تَنفُذ في قلوب أهلها وعقولهم، حتى أصبح الارتجال وإقامة مجالس التفاخر من أبرز العلامات الدالة على ذلك، ورغم كل هذا إلا أن الجرجاني كان مختلفا عن البقية بفضل جانب التجديد، والخروج عن المألوف على أهل اللغة والنقد فيما يخص العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى[1]، وهذا بفضل فهمِه العميق للعلاقات الوظيفية التي يُحققها النظم بين أجزاء التركيب المختلفة، في إطار مظاهر الاتساع التي تُتيحها الصيغ التعبيرية في منظومة الكلام العربي، وهذه المنظومة تتسع لتشمل شَكلي التعبير اللغوي الحقيقي والمجازي معا، لأن بلا شك هذا الاتساع هو الذي يسمح بامتداد المعاني، وانتقال صورها من لفظ لآخر، كما يقول عبد القاهر الجرجاني: "أن صُوَر المعَانِي لا تَتَغيَّر بنَقلِها مِن لَفظٍ إلى لَفظٍ، حتّى يَكُون هنَاك اتِسَاع ومجَازٌ، وحَتّى لاَ يُرَاد من الألفَاظ ظوَاهرُ ما وُضِعت له في اللّغة، ولَكن يشار بمعانيها إلى مَعَانٍ أُخَر".[2]

وفي هذا السياق نجد عبد القاهر الجرجاني يبين لنا أهمية النظم في تحقيق ذلك، كما أنه أضاف بقوله: "...فأمَّا إذا تَغيَّر النَّظم فلابُدَّ حينئذٍ من أن يَتَغيَّر المعنى" [3] فما نستطيع الإشارة عليه، أنه يقوم بربط تغيير النظم بتغير المعنى وهذا التغيير البارز هو ما يُحدث لنا التفاوت والتفاضل بين معنى وآخر في المنظومة الكلامية.

أولا: جذور مفهوم النظم في التراث العربي:

وما تجدر الإشارة إليه هو أن عبد القاهر لم يكن أول من اهتم بالنظم، فالاهتمام بنظم الكلام قديم بقدم الأبحاث اللغوية، حيث أننا نجد قدماء اليونان قد عالجوا قضاياه ضمن ما عالجوا من ألوان الثقافات الأخرى، كما أننا نجد أرسطو والهنود وأصفى شاهدٍ على ذلك ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين عن الصحيفة الهندية، وما ذكره البيروني في تاريخ الهند ووصفه للمحاولات البلاغية التي كانت تتصل بقضية الإعجاز في كتابهم الديني[4]. وقد كان هو أول من اهتم من العرب بهذا الحقل من الدراسات اللغوية[5].

والنَّظم من الجانب اللغوي هو مرادف لمعاني التأليف والتنظيم والجمع على هيئة خاصة، وقد استعمل عبد القاهر هذه اللّفظة للتعبير عن نظَريته في النّظم بألفاظ كثيرة منها: التركيب، التعليق، والترتيب وغيرها، وقد جمعها نصٌّ له ذكره في سياق التمهيد لمعنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وما يجري مجرى هذه الألفاظ، من الكلمات الدالة على معنى المزيّة التي يتحقق بها جمال الكلام ويتفاضل، حتى ينتهي إلى الإعجاز حيث يقول: "... ووجدتُ المَعوَّل على أن ههنا نظمًا وترتيبًا، وتأليفًا وتركيبًا، وصياغةً وتصويراً، ونسجاً وتحبيراً، وأنَّ سَبيلَ هذه المعاني في[6] الكلام الذي هي مجازٌ فيه، سبيلُها في الأَشياءِ التي هي حقيقة فيها..."[7]

جمع شيخ البلاغة هذه الألفاظ الثمانية على نسق متوازن وتناغمي، فنجد نظما وترتيبا، تأليفا وتركيبا، صياغة وتصويرا، نسجا وتحبيرا، فقد بدأت بالنظم وانتهت بالتحبير، وهذا ما لا نجده إلّا في كتابه دلائل الإعجاز.

والنظم في الاصطلاح كان متداولا في مجالات مختلفة، حتى صار مرتبطا بالعملية الشعرية فقط،[8] كمجال لانتظام الإيقاع المتحقق بالأوزان والقوافي، وصار مدلول النظم عند ذلك لا يخرج عن مدلول الوزن والقافية في الشعر، بل صار النظم لصيقا بالشعر ومرادفاً له في مقابل النثر، وهذا يعني أن صاحب الدلائل لم يكن سباقا في استعمال هذا المصطلح.

1- مفهوم النظم لدى ابن المقفع (ت142ه):

والملاحظ في المدلولات التي وُصفت على أنها نظمٌ، غير مُطابقة للمعنى الذي أشرنا إليه، وبعيدة عن المفهوم الاصطلاحي الذي وضعه الجرجاني في نظريته. فقد كان هذا المصطلح يتداول في سياق مفهوم التأليف الذي تأخذه الجملة، كما أنه صار مرتبطا بتأليف الكلام المنتظم على وُجوه من الحسن والجودة، وهذا ما توصل إليه ابن المقفع[9](ت142ه) في هذا الشأن فقال: " فإذا خرجَ الناسُ من أن يكونَ لهم عملٌ أصيلٌ وأن يقولوا قولاً بديعاً، فليعلمِ

الواصفونَ المخبئون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ، ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وَجَد ياقوتاً وزبر حداً ومرْجاناً، فنظمه قلائد وسمُوطاً وأكاليلَ، ووضع كل فصّ موضعهُ، وجمعَ إلى كل لونٍ شَبْهَهُ وما يزيدهُ بذلك حُسناً، فسُمِّيَ بذلك صانعاً رفيقاً، وكَصَاغَةِ الذَّهب والفضة، صنعوا منها ما يعجبُ الناس من الحليّ والآنية... فمن جَرى على لسانِهِ كلاَم يَستَحسِنَهُ، أو يُسْتَحسَنُ مِنهُ، فلا يَعجَبَنَّ إعجاب المخترع المبتدع، فإنّه إنما اجتناهُ كما وصفناهُ"[10] .

ويُعدُّ نص ابن المقفع بذرة التأسيس لأهمية الصياغة في إحداث عنصر الجمال والمزية في الكلام، فقد أشار إلى موضع ما يحسن به الكلام من جهة حسن النظم والتأليف.

2- مفهوم النظم لدى سيبويه (180ه):

تحدث سيبويه **(180ه):** بدوره في مواضع كثيرة من "الكتاب" عن أهمية النظم والتأليف في صحة الكلام واستقامته، وقد عرّج على ذلك في أبواب متفرقة من "الكتاب" يبين فيها وجوه ما يستقيم به الكلام من مسائل تتعلق بتأليف الجملة عند إنشاء الأغراض المختلفة، وما يلزم ذلك من وجوب المعرفة بخصائص الأسماء والأفعال والحروف في ذاتها، وفيما يلزم في تعلقها ببعضها البعض فقال:

"هذا بَابُ الاستقَامةِ من الكَلامِ والإحَالةِ فقال: فمنه مستقيم حسنٌ، ومحُال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح ... فأما المستقيم الحسَن فقولك: أتيتك أمس، وسآتيك غداً، وأمَّا المحال فأن تنقُض أول كلامك بآخره فتقول: آتيتك غدا وسآتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيتُ، وكي زيداً يأتيك، وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمسِ"[11].

وقف سيبويه عند وجوه تأليف الكلام ليُؤكد من خلالها، أن استقامة الكلام أو فساده إنما مردها إلى النظم، وهذا ما أوحى للغويين والنقاد بأهمية الترتيب في تحقيق المزية في الكلام، الذي يتفاضل حتى ينتهي إلى أعلى منازل البلاغة والبيان. كذلك ثمة قرابة كبيرة بين منهج سيبويه في تناول مباحث النحو من الوجهة البلاغية، ونظرية الجرجاني في النظم التي جعل معاني النحو أساساً لها في كتابه دلائل الإعجاز.

نجد سيبويه قد تحدث عن مفهوم النظم مراعيا فيه أحوال النحو ومعتمدا فيه على نوع الدقة في الاستعمال، حيث يذكر أن لكلّ استعمال معناه، وتغيير الاستعمال لابدّ أن ينشأ عنه تغيير المعنى، وهو بذلك لا يَبعُد عن المراد من النّظم في أدقّ ملامحه وإن لم يسمِّه باسمه،[12] والملاحظ أن سيبويه كان المنبع الذي يستقي منه الجرجاني معظم أفكاره.

3- مفهوم النظم لدى أبي عبيدة معمر بن المثنى (209ه):

كما نجد أبو عبيدة معمر بن المثنى[13] الذي تعرض لهذا المقام بعد سيبويه لكنه لم يحدد معالم النظم، وكان ذلك عند تطرقه لمجاز القرآن، فقد قام أبو عبيدة بترشيد الذوق البلاغي معتمدا على فقه اللغة، وأساليبها واستعمالها، والنفاذ إلى خصائص التعبير فيها، وكانت محاولتُه رائدة للنظر في أحوال تراكيب العبارة، والتصرفات البلاغية التي تحدث في النظم العربي[14].

فالملاحظ أن أبا عبيدة يُقيم علاقة بين الإعجاز القرآني والنظم والتراكيب اللغوية، كما فعل شيخ البلاغة بطرحه لنظرية النظم، غير أن معمر بن المثنى لم يذكر لفظة النظم بصريح العبارة.

4- مفهوم النظم لدى الجاحظ (ت255ه):

أما الجاحظ [15] **(ت255ه)** فيُعتبر أول من ذكر لفظ النظم، وقد سمى أحد كُتبه بـ: نظم القرآن، فقد نال النظم عند الجاحظ خطوة كبيرة في مؤلفاته. كما انتشرت في كتبه لمحات عكست صدى روعة نظم القرآن إذ أنه رأى أن إعجاز القرآن كامن في نظمه.

كما أنه دعا إلى دراسة الأدب وفنونه، وضروبه وأغراضه لكي يستوعب الباحث الفرق بين النَّظمين فقال: " وفرق ما بين نَظْم القرآن وتأْلِيفه فلَيس يعرف فروق النظم واختلاف البحث في الشعر والنثر إلاّ من عرف القصد من الرجز والمخمس من الأسجاع والمزدوج من المنثور، والخطب من الرسائل، وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات، فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام"[16].

5- مفهوم النظم لدى المبرد (ت285هـ):

وأما المبرد[17] **(ت285هـ)** "...حقّ البَلاغة إحَاطة القَولِ بالمَعنى وأيضًا اختيارُ الكَلام وحُسن النَّظم، حتَّى الكَلمَة مقاربة أختها ومعَاضدة شكلها.[18]

6- مفهوم النظم لدى أبي هلال العسكري (ت395 هـ):

كما عرّج أبو الهلال العسكري[19] **(ت395 هـ)** على قضية النظم في كتابه "الصناعتين حديث مقتضب عن النظم " حين عقد بابا في البيان عن حسن النظم، والسبك وخلاف ذلك. من بين ما جاء في هذا الشأن :" وحُسن الرَّصف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتمكن في أماكنها ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام ولا يعمي المعنى وتُضم كل لفظة منها إلى شكلها ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرفها عن وجوهها وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها ".[20]

ممّا سبق فإننا نجد فئة كبيرة من النّحاة والبلاغيين الذّين تطرّقوا إلى قضيّة النّظم، غير أنّهم لم يُسمّوا ذلك نظما كما أسماه الجاحظ، وإنّما قدّم كلُّ دارسٍ مفهوما يجده مناسبا له ويليق به، كما نجد فئة أخرى تميّزت بتحدثهم على النّظم من خلال البحث في قضية الإعجاز، من بينهم:

1- الرماني[21] (ت 386 هـ) حيث قدم في رسالته الموسومة بـ: النكت في إعجاز القرآن[22] وجوه الإعجاز وقسم بدوره البلاغة إلى ثلاث طبقات منها:

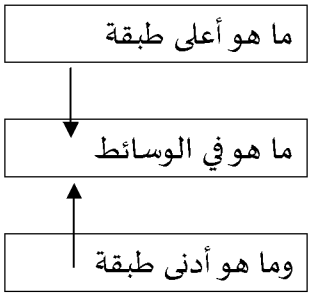

فما كان أعلاها فهو معجز، وما كان دون ذلك فهو مُمكنٌ كبلاغة البلغاء والفصحاء من الناس، وبعدها وجّه عنايته إلى أعلى طبقة الإعجاز، وهي صفة القرآن الكريم، وكان يستشهد كثيرا بآيات القرآن الكريم في جلّ القضايا المتعلقة بالبلاغة، هذا ما أودى به إلى تحديد مفهوم جديد للنظم الذي يقف عند المعنى، والعبارة، والصورة، حيث اعتبر البلاغة وجهاً من وجوه الإعجاز، لهذا لم يشغل نفسه بصلة النظم بعلم النحو، ولكنه حدّد ما يرتبط بالنظم وشرحه.

واعتبر الرماني النظم طريقاً إلى البلاغة التي عدها أحد وجوه الإعجاز وبالتالي غفل عن النظم باعتبار صلته بالنحو وما يتبع ذلك من الغفلة عن كثير من فنون المعاني.[23]

2- الخطّابي (ت388 هـ) من بين أهم كتب الإعجاز له هو (كتاب بيان إعجاز القرآن) اذ يعرض مسألة النظم القرآني بمعنى التأليف وما تخضع له الألفاظ والمعاني؛ أي بنّى النّظم على صفات جمالية في الألفاظ. فقد ذهب إلى أن الكلام يقوم بعناصر ثلاث لفظ حامل، ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم،[24] ثم يقول: " إذا تَأَمَّلتَ القُرآن وَجدتَ هذِه

الأُمُور منه في غَايةِ الشَّرفِ والفَضِيلةِ، حتَّى لا ترَى شيئًا من الألفَاظِ أفصَح ولا أجزَل ولا أعذَب من ألفَاظِه، ولا تَرى نَظمًا أحسَن تأليفًا وأشدّ تلاؤمًا وتشاكلاً من نَظمِه"[25].

ويرى أن السّر الوحيد الذي دلّ على إعجاز النص القرآني هو اجتماع هذه الأمور الثلاثة، إذ يقول: "واعلم أن القرآن وإنّما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف... مضمنا أصحّ المعاني."[26]

كما أنه وضح أن المعيار الذي تُقاس به البلاغة هو "أنْ توضع كلّ لفظة في موضعها الأخص لها من الكلام"[27]....

وأشار إلى أن في اللغة ألفاظ متقاربة في المعاني، ولكل منها خاصيتها تتميز بها عن غيرها فلابد من مراعاة هذا الفرق.

كشف عن نظرته للنظم وصرَّح أن النظم ليس أمرا سهلا، إنما يحتاج إلى ثقافة وحذق فيقول: " أما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني، به تنتظم أجزاء الكلام، ويرتبط بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان"[28].

وهذا ما جعل بعض الباحثين ينظرون إلى الخطّابي نظرة مختلفة، كون فهمه لنظرية النظم قريب لفهم نظرية النظم عند الجرجاني، إذ إن النّظم عند الخطابي هو: " صورة اللّفظ المتفاعل مع المعنى للتّعبير عن التّجربة الفنية، وليس للألفاظ وحدها ولا للمعاني أهمية النظم وهو تقدير له قيمته، لأنه يحط من اللفظ بعض أهميته التي ركز حولها السابقون في دراستهم"[29].

وظهرت فئة أخرى تُناقض رأي بعض النحويين الذين صرحوا بتقارب مفهوم النظم عند الجرجاني والخطابي؛ لأن هذا الأخير يعتبر أن أساس البلاغة هو وضعُ كل نوع من الألفاظ في موضِعه الخاص به، وعلى المتأمل أن يدرِك الفروق الدقيقة بين الألفاظ المتشابهة في الاستعمال، وهذا ما يختلف عن مقصود الجرجاني للنظم بأنه توخي معاني النحو فيما بين الكلم.

3- القاضي عبد الجبار (ت415 ه) أكثر العلماء وضوحا في دراسته لقضية النظم بعد شيخ البلاغة، إذ نلفي عبد الجبار الذي عقب أستاذه ابن هاشم الجبائي **(ت 133ه)** في اعتباره أن الفصاحة في اللفظ ، فحاول أن يُكمل عمل أستاذه حين أغفل تركيب الكلام فعقد فصلا وضح فيه بقوله " واعلَم أن الفصاحَةَ لا تظهرُ في أفرَاد الكلاَم وإنما تظهَرُ في الكلامِ بالضمّ على طريقَة مخصُوصَة، ولا بد مع الضمّ من أن يَكون لكلّ كلِمة صفَة، وقد يجُوز في هذه الصِفة أن تكون بالمُواضعة التي تتناول الضمّ، وقد تكُون بالإعرابِ الذّي له مدخَل فيه وقد، تكُون بالموقِع، وليست لهذه الأقسَام الثلاثَة رابع".[30]

ومن هنا يقترب القاضي عبد الجبار من عبد القاهر في تفسيره للنظم، فهو يرى بأن الفصاحة لا تكون في أفراد الكلمات، بل بضمّ الكلمات إلى بعضها، ومراعاة حركاتها في الإعراب وموقعها في التقديم والتأخير، وهذا ما ذهب إليه شيخ البلاغة.

شغل مصطلح النظم فكر كثير من الدارسين، إذ هذا ما ولّد كثيرا من الآراء المختلفة التي كان مفادها البحث عن مفهوم يقارب فهم الجرجاني، بعدما قدّم كلُّ دارس مفهومَه الخاص، لكن رغم هذا الاختلاف الذّي برز بين جُلِّ النّحويين والبلاغيين غير أنّهم اتّفقوا على أن النّظم هو وليد قضية الإعجاز القرآني.

مفهوم النظم لدى عبد القاهر الجرجاني (ت471 ه):

فمن جهود أبي علي الفارسي تبدأ الخطوة الحقيقية للدرس النحوي الذي يضطلع بحقيقته الكاملة العلاّمة الكبير عبد القاهر الجرجاني **(ت471ه)** فيفتح للدرس النحوي أفقا أوسع لم تخطر في عقول النحويين من قبل.

برزت فكرة النظم عند الجاحظ بمعنى النسق الخاص في التعبير والطريقة المميزة في التراكيب. فنلاحظ أن الجاحظ قام بالتفريق بين النظم القرآني ونظم الكلام، كما أنه تحدث عن اللفظة المفردة واشترط عليها أن تكون خالية من تنافر الحروف، اذ قال :" أن تكون الألفاظ سهلة كأنها لفظ واحد وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج

فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا"[31] وبعدها التفت للكلام عن القرآن وربطه بالإعجاز وعن عجز العرب عن الإتيان بمثله.

كما أننا لا نستطيع إنكار مجهود عبد القاهر الجرجاني في استخلاص عصارة المحاولات المتراكمة التي كانت عبر حقب زمنية طويلة، وبفضل فطنته وذكائه كانت له نظرة صائبة، إذ أنه كان على علم لما سيُقبل عليه البحث اللغوي بعد زمن بعيد، وقد كان مدركا منذ الوهلة الأولى بأهمية النحو، وساءهُ ما رأى، وهو أمر لا يمكن السكوت عنه، فعمل جاهدا على أن يغير وصف النحو كما وصفوه على أنه ملح طعام، بل هو الطعام ذاته، وأنه وحده الكفيل بحفظ العربية من اللحن والتحريف، وما ينجر عن ذلك من المسّ بقداسة كتاب الله الذي نزل بلسان عربي مبين.

وفي موضع آخر، تطرق عبد القاهر الجرجاني إلى أهمية النحو ونبّه على خطورة تركِه والزهد فيه قائلا: "وأمّا زُهدهم في النحو واحتقارُهم له، وإصغارُهم أمرَه، وتهاونُهم به، فصنيعُهم في ذلك أشنعُ من صنيعهم في الذي تقدَّم، وأشْبهُ بأن يكون صدًّا عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه. ذاكَ لأنهم لا يجدُون بدًّا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذ كان قد عُلِم أن الألفاظ مُغْلَقةٌ على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأنَّ الأغراضَ كامنَة فيها حتى يكون هو المستخرِجَ لها، وأنه المِعيار الذي لا يتبيَّن نُقصان كلامٍ ورُجحانُه حتى يُعْرَض عليه، والمِقياس الذي لا يعرف صحيحٌ من سقيم حتى يُرْجَعَ إليه، لا ينكر ذلك إلاَّ من ينكر حِسَّه، وإلا من غالطَ في الحقائق نفسَه"[32].

مما سبق، أراد عبد القاهر الجرجاني أن يوضح للناس الصورة الحقيقية للنحو، ويصرِف موقف النحاة الذين سلكوا فيه طريق التوعر، والتقعر، لكي يتوصل الناس إلى صُلب النحو الصحيح من المصادر العربية الفصيحة، بحيث بيَّن أن هذه الصفات لا تتبلور إلاّ في صورة النص القرآني، وبهذا التصور تصبح لغة القرآن الكريم عنده، هي معيار العربية الصحيحة، وكل هذا تمّ بموجب إثبات حقيقة الإعجاز القرآني القائم بالفعل في نظمه وبيانه، ولكي يتم به إعادة الناس إلى تذوق وجوه هذا الإعجاز اللغوي والبياني بما يدعوهم ذلك إلى تأمل القرآن وتدبر معانيه.

وبعد ما حدد عبد القاهر الجرجاني الغاية التي يسيرها عليه منهجه، انصبّ من جديد على البحث في موضوع اللغة "نحواً وبلاغةً ونقداً" من منظور مسألة الإعجاز القرآني، باعتباره السر الذي وُكِّلَت به العربية لتبليغ ديننا وإقناع الناس به.

فكما أشرنا سابقا، أنه جعل نظرية النظم منهجا له في إثبات وجه الإعجاز في لغة القرآن الكريم، فقد محوَرَها على جميع مباحثه، رغم هذا اختلفت أراء الناس حيث نظر إليه البعض نظرة النحوي فوق كل النحويين، والبعض البليغ فوق كل البلاغيين، والبعض الآخر جعله مُفسِراً لوجوه الإعجاز، وهناك من اعتبره الناقدَ الذي لا يُجَارَى، والأديب الذي لا يُنافَس، فمن الواضح أنهم أدركوا عظمة علمه وفضله على العربية، ومهارته في التحليل وقدرته على الاستنباط والتعليل، ولكن رغم كل هذا التمايُز والفضل إلاّ أنهم ضَيَقُوا أفق نظرية النظم على حسب ما تقتضيه تخصصاتهم وأبحاثهم، فنجد الدارس يركز على رؤية منهجية محدودة قد تفرضها طبيعة البحث عليه أو توجهاته الفكرية. فهذا ما يبيّن أن اهتمام هؤلاء الدارسين يدل من جهة على دقة الطابع التخصصي، ومن جهة أخرى حال دون إيجاد رؤية متكاملة منسجمة قد انحصرت فيها جهود عبد القاهر الجرجاني وأعماله، لتكتمل آراؤه واستنتاجاته، ولكي تتحقق فرضية مشروع الجرجاني برسم تجربة ناضجة للذوق قابلة للتكيف مع كل معطيات البحث اللغوي في حقول المعرفة المختلفة.

أدرك الجرجاني بفضل فطنته منذ اللحظة الأولى أن إثبات مسألة إعجاز القرآن الكريم تتوقف على إظهار وُجوه النظم وطرائقَه في هذا النص المقدس، بالقياس إلى أساليب العربية وطرائقها في التعبير، فجعل كيفية

الكشف قائمة على إبانة وجوه تأليف الكلام وِفق ما تقتضيه معاني النحو، أي ما تقتضيه منهجية البحث اللغوي القائمة على الانتقال من إثبات حالة الصحة أو الخطأ في التعبير، إلى إثبات المزية والفضل في وجوه هذا التعبير الصحيح.

وهنا لا يعني الصحة والخطأ من حيث القواعد المألوفة، والرسوم المعروفة التي جرت عليها ألسنة العرب بالسليقة والبديهة الصائبة، وإنما يتعلقان بإصابة المعاني والأغراض أو عدمها على الوجه الصحيح والسليم؛ لأن العربي آنذاك لم يكن يجد عناءً في أن يرفع في موضع الرفع أو ينصب في موضع النصب، وإنما الذي يجد فيه العناء هو أن يعبر عن المعنى والغرض بصورة صحيحة مناسبة لكل مقام، فهذا ما يدل عليه حال تفاضُل كلام العرب بعضه عن بعض، فكثيرا ما نجد شعراء العربية الكبار في العصر الجاهلي، وإن تشابهت في أشعارهم المعاني والأغراض إلاّ أنها تختلف من حيث الجودةُ والفضلُ، بل تفاوتت إلى حد وُصفت بالبراعة والقوة كما وُصفت في موضع آخر بالضعفِ.

فنزل الشعراء بسبب ذلك منازل متباينة حتى أصحاب التأليف في فنون الأدب الأخرى تباينت منازلهُم، وهذا كله نتيجة تفاوتهم في النظم القائمِ على معاني النحو وأحكامه، وفي هذا يقول الجرجاني: "فلستَ بواجدٍ شيئاً يرجعُ صوابُه إن كان صواباً، وخَطؤُه إن كان خطأً، إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلاّ وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، فأُزيل عن موضعه، واستُعمِل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وُصف بصحَّةِ نظمٍ أو فساده، أو وصف بمزَّيةٍ وفضلٍ فيه، إلا وأنت تجد مرجعَ تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحوِ وأحكامه، ووجدته يدخلُ في أصل من أصوله، ويتَّصل بباب من أبوابه"[33]. وفي ضوء هذا الفهم الذي يؤكد أن إقامة الكلام مرتبطة بمعاني النحو من حيث الصحة والفسادُ، وهذا يعد مرتكزا معرفيا منمازا ومهمّا عند شيخنا.

ويكاد يجمع الباحثون على أن جهود عبد القاهر في الدرس البلاغي والجمالي لا تردّ ولا تنكر؛ لأنّه انماز عن سابقيه بما توصل إليه، انطلاقا من تصوّره العميق لأساليب اللغة العربية، يقول الأستاذ تمام حسان: "... أجدني مدفوعا إلى المبادرة بتأكيد أن دراسة عبد القاهر الجرجاني للنظم وما يتصل به يقف بكبرياء كتفا إلى كتف مع أحدث النظريات اللّغوية في الغرب، وتفوق معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي هذا مع الفارق الزمني الواسع الذي كان ينبغي أن يكون ميزة للجهود المحدثة على جهد عبد القاهر الجرجاني"[34]

فيما يخص الفكرة المحورية التي بنى عليها عبد القاهر الجرجاني كتابه دلائل الإعجاز، تدور حول بلاغة الكلام، وأنها تكون في النظم، فقد فرق في البداية بين (الحروف المنظومة) و(الكَلِمِ المنظوم) ذلك أن نظم الحروف هو توالِيها، وليس نظمُها بمقتَضى عن معنى، من غير أن يكون هذا النظم ناشئا عن معنى اقتضاه، فلا وجود لصلة بين رسم الكلمة ومعناها إذ قال: "فلو أنَّ واضع اللغة كان قد قال (رَبَضَ) مكان (ضَرَبَ)، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد[35]".

والأمر يختلف في نَظْمُ الكَلِم فهي حسب ترتيب المعاني في النفس، ويظهر هذا في قوله: "هو إذن نظْمٌ يُعتبر فيه حال المنْظُوم بعضه مع بعض، وليس هو النَّظم الذي معناه ضَمُّ الشيء إلى شيء"[36]. والفائدة من معرفة هذا الفرق انه يُمكِّنُك من معرفة أن الغرضُ بِنظْم الكَلِم لا يكمن في توالي الألفاظ في النطق، بل إن تناسقت دلالة الألفاظ وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل، لأننا لا نشك في أنه لا صلة للفظة بصاحبتها إذا عزلت دلالتهما جانبا، فالألفاظ من حيث هي ألفاظ تستحق أن تنظم على وجه دون وجه[37].

كما أنه يُشير على بعض الشُّبَه وما يُغلِط الناظر في هذا الموضع، أنه يَسْتَبعِد" أن يُقال: هذا كلام قد نُظِمَت معانيه"[38]، فيجيب على ذلك عبد القاهر الجرجاني: "إن كانوا يستعملوا النظم في المعنى، قد استعملوا فيها ما هو

بمعناه ونظير له، وذلك قوله: إنه يرتب المعاني في نفسه، وينَزِّلها، ويَبْني بعضها على بعض، كما يقولون: يرتّب الفروعَ على الأصول، ويتبع المعنى المعنى، ويلحق النظير بالنظير"[39]. فلم يرق عبد القاهر هذا الرأي وعلق عليه لكي يوضح فكرته ويُزيل الشُّبه بقوله: "إذا كنتَ تعلم أنهم قد استعاروا النسجَ والوشْى والنَّقْشَ والصِّياغة لنفس ما استعاروا له النظم، وكان لا يُشَكُّ في أن ذلك كلَّه تشبيهٌ وتمثيل يرجع إلى أمور وأوصافٍ تتعلق بالمعنى دون الألفاظ، فمن حقك أن تعلم أن سبيل النظم ذلك السبيل[40]".

وطرح الجرجاني موضوع النظم كبديل منهجي، تكتمل معالمه الحقيقية وتتحدد عناصره الجمالية أكثر في ضوء نظرية لغوية ذات طابع تواصلي، ولا شك أن الإمكانية التعبيرية التي تحدث في العملية التواصلية تقوم أساسا على فاعلية النظم، الذي تتحول معه معاني الألفاظ المفردة داخل السياق إلى معاني كلية، تنظمها هيئة التركيب الذي يكون المستهدف فيها المخاطَب أو المتلقي بوصفه المعني الأول بمدلولات التركيب المنتظم.

الهوامش:

[1] حين سيطرت المعيارية الصارمة التي تتنازعها فكرة الثنائيات المتناقضة في التمييز بين الخطأ والصواب والجيد والرديء، والحسن والقبيح، والمطبوع والمصنوع، فانزاحت هذه الأحكام التقويمية التجزيئية من الكليات العامة إلى الجزئيات والشروح، وشملت بذلك مسائل: كاللفظ والمعنى، الطبع والصنعة، والأصالة والانتحال...

ولما كانت ثنائية اللفظ والمعنى قائمة باستمرار، فقد كَثُر الجدل بشأن تفصيل أحدهما على الآخر، وحول كيفية الإجادة في كليهما، وإقامة الألفة بينهما.

[2] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص265

[3] المصدر نفسه، ص265

[4] يمكن مراجعة هذه القضية في كتاب عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، الدكتور أحمد أحمد بدوي وكيل كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص58

[5] ينظر المرجع نفسه ص58.

[6] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص34

[7] المصدر نفسه، ص35

[8] ورد مصطلح النظم بمعنى التأليف الشعري الذي يلتزم قواعد متواضعاً عليها من حيث الوزن خاصة، والعروض عامة.

[9] أبو مُحمّد عبد الله بن المقفع (106 - 142 هـ) (724 م . 759 م) (بالفارسية: ابن مقفع - أبو مُحَمَّد عبد الله روزبه بن داذويه) وهو مفكّر فارسي وُلِد مجوسياً لكنه اعتنق الإسلام، وعاصر كُلاً من الخلافة الأموية والعباسية. جمع بين الثقافة العربية والفارسية واليونانية والهندية، فنال من كل هذه الثقافات نصيبًا وافرًا من الفصاحة والبلاغة والأدب، ولا يخفى هذا الأثر الطيِّب إذا تصفّحتَ مؤلَفًا من مؤلفاته، فتنهال عليك الحكمة من بين الأسطر، وتنعم بالأسلوب السلس، والذوق الرفيع. ومن مؤلفاته: الدرة الثمينة والجوهرة المكنونة. - الأدب الصغير. نشره "طاهر الجزائري"، ثم نُشر بتحقيق "أحمد زكي باشا" سنة 1911 م، وصدر حديثًا بتحقيق "وائل حافظ خلف" سنة 2011 م. - رسالة الصحابة. - كليلة ودمنة . نقله عن الهندية. (ترجمة)

[10] الأدب الصغير، ابن المقفع، مطبعة جمعية العروة الوثقى، الإسكندرية، الطبعة الأولى 1911، ص6-7

[11] الكتاب، سيبويه، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة، 1988ج1، ص26/25

[12] ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي، د.عبد الفادر حسين، دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة 1975، ص375

[13] هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي (110 - 209 هـ / 728 - 824 م) هو أديب وعالم باللغة، من أهل البصرة. له كثير من التصانيف منها: «نقائض جرير والفرزدق»، «مجاز القرآن»، «رسالة العققة والبررة»، «مآثر العرب»، «مثالب العرب»، «فتوح أرمينية»، «ما تلحن فيه العامة»، «أيام العرب»، «الإنسان»، «الزرع»، «الشوارد»، «طبقات الشعراء»، «طبقات الفرسان»، «المحاضرات والمحاورات»، «الخيل»، «الأمثال»، «تسمية أزواج النبي».

[14] أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد الفادر حسين، ص376

[15] الجاحظ الكناني هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري (159 هـ-255 هـ) أديب عربي كان من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها. من بين مؤلفاته: البيان والتبيين في أربعة أجزاء، كتاب الحيوان في ثمانية أجزاء، البخلاء، المحاسن والأضداد.

[16] قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عبد العزيز عبد المعطي عرفة، ط1985، ص34

[17] أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف بالمبرد، وهو عوف بن أسلم من الأزد.(ولد 10 ذو الحجة 210 هـ/825 م، وتوفي عام 286 هـ/899 م) هو أحد العلماء الجهابذة في علوم البلاغة والنحو والنقد، عاش في العصر العباسي في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). بالرغم من مكانة المبرد الأدبية والعلمية، وغزارة علمه واتساع معارفه، فإنه لم يصلنا من آثاره ومؤلفاته إلا عدد قليل منها: - شرح لامية العرب، الكامل في اللغة والأدب: وهو من الكتب الرائدة في فن الأدب، وقد طُبع مرات عديدة، وشرحه "سيد بن علي المرصفي" في ثمانية أجزاء كبيرة بعنوان "رغبة الأمل في شرح الكامل"، الفاضل: وهو كتاب مختصر يقوم على أسلوب الاختيارات، ويعتمد على الطرائف وحسن الاختيار. نشر بتحقيق من عبد العزيز الميمني، المقتضب: ويقع في ثلاثة أجزاء ضخمة، ويتناول كل موضوعات النحو والصرف بأسلوب واضح مدعَّم بالشواهد والأمثلة. بالإضافة إلى بعض الكتب الأخرى التي وردت إشارات عنها في عدد من المراجع والمصادر العربية القديمة، ولكنها لم تصل إلينا.

[18] البلاغة، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق د. رمضان عبد التواب، ط2، سنة 1985، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص59.

[19] الحَسَن بْن عَبْد الله بْن سهل بْن سَعِيد بْن يحيى بْن مِهْران العسكري اللُّغَويّ، الأديب، الشاعر [الوفاة: العاشر من شعبان سنة 395 هـ] من مؤلفاته: المحاسن في تفسير القرآن، ديوان المعاني، الفروق في اللغة، جمهرة الأمثال، شرح الحماسة، كتاب الصناعتين، الفروق اللغوية.

[20] الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، دار الفكر العربي، ط2، د.ت، ص167

[21] الرماني: هو العلامة علي بن عبد الله أبو الحسن علي بن عيسى الرماني الإخشيدي الوراق النحوي. الرماني: بتشديد الراء والميم نسبة إلى الرملن أو قصر الرمان الموجود بواسط، والإخشيدي: نسبة إلى الإخشيد أستاذه المعتزلي. ويعرف أيضا الوراق لقيامه بأعمال الوراقة التي كانت شائعة في عصره، صنف الرماني مجموعة ضخمة من المصنفات والمؤلفات، قدرتها بعض المصادر بما يقرب من مائة كتاب، معظمها في علم النحو الذي برع فيه واشتهر به، وصنف في التفسير، واللغة، والكلام، وشرح " سيبويه «، وكتاب " الجمل «، وله في الاشتقاق، وفي التصريف، وأشياء، وألف في الاعتزال " صنعة الاستدلال " سبع مجلدات، وكتاب " الأسماء والصفات «، وكتاب " الأكوان «، وكتاب " المعلوم والمجهول ". بيد أن هذه المؤلفات لا تحجب المؤلفات الدينية خاصة في علوم القرآن منها: تفسير القرآن المجيد، ألفات القرآن، الجامع في علوم القرآن، شرح معاني القرآن للزجاجي.

[22] النكت في إعجاز القرآن: وهي رسالة علمية بليغة طبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - بدار المارف بمصر-. وهي للرماني لتوضيح مفهومه للإعجاز القرآني.

[23] إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، سلطان منير، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط3 ،1986، ص76/75

[24] ينظر: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي الخطاب: البيان في إعجاز القرآن، سلسلة ذخائر العرب، تحقيق محمد خلف ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 1976، ص 22-27.

[25] الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان، دار المنايرة، ط1، 1991م، ص 11

[26] المرجع نفسه، ص19

[27] ينظر، نظرية الإعجاز القرآني، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم، شفيع السيد، دار الفكر العربي، ط2، 1996، ص61/60

[28] قضية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، أحمد سيد محمد عمار، دار الفكر المعاصر، ط1، 1998، ص320

[29] نظرية الإعجاز القرآني، شفيع السيد، ص136

[30] أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، دار النهضة مصر للطبع والنشر، د.ط 1975، ص377

[31] االبيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط5، سنة 1985، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1/،67.

[32] دلائل الإعجاز، الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني، ص28

[33] دلائل الإعجاز، الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني، ص82-83

[34] اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، ط3، سنة 1418هـ /1998م، عالم الكتب، القاهرة، مصر.

[35] المرجع نفسه، ص49

[36] المرجع السابق، ص49

[37] عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، الدكتور أحمد أحمد بدوي وكيل كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص102

[38] دلائل الإعجاز، الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني، ص53

[39] المصدر نفسه، ص53

[40] المصدر نفسه، ص53